الفصل الرابع

ثورات المصريين في العصر الحديث

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

ثورات المصريين في العصر الحديث

لقد جنى موقع مصر الجغرافي المتميز ، وكثرت خيراتها – عليها فما من أمة من الأمم عندما تعظم قوتها ويشتد بأسها إلا وتطمع في غزو مصر لتجني خيراتها وتحوز شرف حكمها .

فقد طمع فيها قديماً : الهكسوس ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، وفي العصور الوسطى : العرب ، والصليبيون ، والعثمانيون ، وفي العصر الحديث : فرنسا ، وانجلترا .

مصر قُبَيْل الحملة الفرنسية

كانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م جزءاً من التنافس الاستعماري بين انجلترا وفرنسا على المستعمرات ، ومصر هي واسطة العقد ، ودرة التاج بالنسبة لسائر المستعمرات .

كان المجتمع المصري قبل الحملة الفرنسية ينقسم إلى قسمين متمايزين أشد ما يكون التمايز ، وهما : الحكام ، والمحكومين .

الحكام من الأرستقراطية التركية والبكوات المماليك ، ولهم السلطة والنفوذ ، وعاشوا في عزلة اجتماعية عن سائر فئات المجتمع .

أما المحكومون المصريون فكان منهم : المشايخ والعلماء ، والتجار ويمثلون شريحة الطبقة الوسطى .

obeikandl.com

وفلاحون ، وصغار الحرفيين ، وعامة الناس وهم الغالبية فيمثلون الطبقة الدنيا أو البروليتاريا بحسب مصطلح كارل ماركس .

لقد مرت بمصر خلال تاريخها الطويل حروب ومنازعات وأحداث ضخام غير أن الحالة كانت أسوأ ما تكون في عهد الأتراك والمماليك .

كان الحكام منهمكون في حروبهم ، وأهل البلد مشغولون على مصيرهم وحياتهم، أهملت الزراعة فطغت الرمال على الوادي الخصيب ، وصار الحاكم عربيّاً كان أو تركياً أو مملوكاً لا دراية له بالزراعة ولا إدراك بأهميتها ، فتناقصت المساحات المزروعة ، وتزايدت الأرض البور ، وانتشر الفقر وتوابعه من المرض والانحلال واليأس ... لم تكن هناك عناية صحيَّة ، ولم يكن هناك علاج أو وقاية ، وحين هاجم الطاعون أرض مصر اجتاح الموت والوباء أرجاء البلاد ، ومات الناس بغير حساب ، وكان اختلال النظام واستبداد الحكام في أيام الأتراك والمماليك مساعداً على كل ذلك حيث قُدِّر السكان على عهد الحملة الفرنسية بمليوني نفس .

وكانت كل هذه الأحوال معروفة لدى الأوربيين عن طريق عيونهم والمستكشفين والمستشرقين ، بالإضافة إلى أن الاختراعات الحديثة لم تدخل البلاد المصرية ، فطمأن الأوربي إلى سهولة غزوها ، وإلى وجود سخط عام بين صفوف الشعب يمهده للوقوع فريسة للغزاة بغير مقاومة جدية . (١)

مصر العثمانية وفرنسا الأوربية

وبسبب العزلة التي فرضها العثمانيون على مصر ، وإغلاقهم المدارس ، وترحيلهم العلماء والصناع المهرة إلى الآستانة – انتشر الجهل ، وسادت الخرافات والشعوذة، ولم يبق من نور علم إلا البصيص في الأزهر الشريف ، مع إغلاق باب الاجتهاد في الدين .

(1) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ٦٢ ، ٦٣ .

لذا عند المواجهة بين الحملة الفرنسية ، والمقاومة المصرية ظهر الفارق الكبير بين ما وصلت إليه أوربا من تقدم ونهضة وديمقراطية ، وما انحدرت إليه مصر من تخلف ورجعية واستبداد .

فالمجتمع الفرنسي كان قد تقدَّم بالإنتاج اقتصاديّاً ووصل إلى مرحلة من التنوير سياسيّاً من حيث الثورة على الحكم المطلق وإقامة الجمهورية ، وإعلان مبادئ الحرية والإخاء والمساواة لكافة المواطنين . أما المجتمع المصري الشرقي العثماني فكان لا يزال نظاماً عسكريّاً ، واقتصاديّاً راكداً بشكل عام وجد فيه الأجانب وسيلة سهلة للسيطرة . وبالمقارنة بين المجتمعين يلاحظ أن ميزان القوة المادية والتفوق الحضاري كان في صالح الغرب الفرنسي . (١)

والأحداث تؤكد مدى اتساع هذا الفارق بين مصر وفرنسا ذلك الفارق الذي سهَّل استيلاء الحملة الفرنسية على مصر .

فعندما طلب نلسون قائد الأسطول الإنجليزي من محمد كريم حاكم الإسكندرية "أن يسمح له بالمرابطة في المياه المصرية في انتظار مَقْدِم الأسطول الفرنسي الذي لا قِبَل للمصريين بمواجهته ... انتهر السيد محمد كريم في كبرياء وصلف رسل الأسطول الإنجليزي وطلب منهم أن يسرعوا بالابتعاد عن المياه المصرية وإلا أطلق عليهم المدافع فإن مصر أرض السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها من سبيل فاذهبوا عنها .

ولم تكن هذه المدافع التي هدد محمد كريم بإطلاقها إلا أربعة مدافع قديمة عفا عليها الزمن ولعله ليس هناك ما يكشف عن العزلة والجهل بأحوال الدنيا وما تطورت إليه أكثر من هذه العبارة من أن مصر أرض السلطان . لقد كان محمد كريم لا يزال

(1) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٧٨ ، ٧٩ .

obeikandl.com

يعيش في الوهم القديم من أن مجرد ذكر اسم السلطان من شأنه أن يخلع القلوب من الرعب ... وعندما جاء نابليون أبدى محمد كريم ومن معه بعض المقاومة لكن الأسلحة الحديثة حسمت قصة احتلال الإسكندرية . " (١)

الحملة الفرنسية ومقاومة المماليك

واصلت القوات الفرنسية زحفها ، بعد احتلالها مدينة الإسكندرية ، في طريقها إلى العاصمة فالتفت بقوات مراد بك بالقرب من شبراخيت في البحيرة (١٣ يوليه ١٧٩٨م) حيث هُزِم وتقهقر جنوباً للدفاع عن القاهرة ورابط عند إمبابة ، وهناك واجه المماليك الفرنسيين مرة أخرى حيث هزموا وفر مراد بك إلى الصعيد ، وهرب إبراهيم بك ومعه الوالي العثماني إلى الشام ، وبذلك خلت القاهرة من أية قوة للدفاع .

وبرغم خلو القاهرة من المقاومة ظلت القوات الفرنسية تحارب حرباً واسعة مترامية الأطراف من الجيزة شمالاً وحتى أسوان جنوباً ، ومن القصير شرقاً إلى واحات الصحراء الغربية دون أن تخضع البلاد خضوعاً تاماً ، وهكذا أخذت المقاومة في الصعيد شكل الشعور الوطني تجاه الأجانب الفرنجة ، وهو الشعور الذي أخذ يتعاظم ويتبلور فيما بعد عند مواجهة محاولة انجلترا دخول مصر فيما بعد عام ١٨٠٧ .

ثورة القاهرة الأولى (ثورة الرعاع)

خلال معارك القوات الفرنسية لإخضاع الصعيد اندلعت ثورة في القاهرة ضد الحكم الفرنسي ، وتتخلص أسبابها فيما يلي :

– فرض ضرائب فادحة وخاصة على التجار خلافاً لما وعد به نابليون من حيث إنصاف المصريين من ظلم المماليك .

– تفتيش البيوت ، واقتحام الدكاكين بحثاً عن الأموال .

(١) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " دار الشعب المجلد الثالث ص ٨٧٩

– هدم أبواب الحارات والدروب حتى يسهل اقتحام الحارات لمطاردة عناصر المقاومة .

– هدم كثير من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة .

على أن فرض الضرائب الكثيرة كان أكبر عوامل الثورة . (١)

وبهذا تكون الحملة الفرنسية قد انتهكت المحظورات الثلاثة : إهانة المقدسات الدينية، وإهدار الكرامة ، ونهب ثروات البلاد .

يقول الجبرتي عن هذه الثورة : " في يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا (أي الفرنسيون) الديوان واحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة (٢) والأوسط ستة والأدنى ثلاثة وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخاً للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا في الضبط والإحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها .

ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاء .

وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وذعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح في الكلام نصر الله دين الإسلام فذهبوا إلى بيت

(1) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٨٢ .
(2) ثمانية فرنكات فرنسية .

قاضي العسكر وتجمعوا وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجَّابَه فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر .

وفي ذلك الوقت حضر دبوى (حاكم مدينة القاهرة) بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية وذهب إلى بيت القاضي فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة فبادروا إليه وضربوه وأثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه .

فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ومن كل حدب ينسلون ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حاذاها ولم يتعد جهة سواها وهدموا مساطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس .

وأما الجهات البرانية والنواحي الفوقانية فلم يفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر ولم تزل طائفة المحاربين في الأزقة مُتَتَرِّسين .

فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية المناخلية وبندقوا على متراس الشوائين وبه جماعة من مغاربة الفحامين فقاتلوهم حتى أجلوهم وعن المناخلية أزالوهم عند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال .

وخرجت العامة عن الحد وبالغوا في القضية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا

النساء والبنات وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات وأكثروا من المعايب ولم يفكروا في العواقب وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحل مستمرين"(١)

والمتأمل فيما كتبه الجبرتي ، وهو شاهد عيان ، يلاحظ الآتي :

١- أن السبب الذي ثار من أجله الثوَّار هو كثرة الضرائب وتنوعها .

٢- أن الثوَّار لم يكن لهم قائد ، ومشايخ الأزهر الكبار لم يشتركوا في الثورة لا تخطيطاً ولا تنفيذاً ، وكل ما فعلوه أنه لم يجيبوا دعوة نابليون وماطلوه عندما دعاهم ليشاورهم فيما جرى من الثائرين .

٣- أن هذه الثورة لم تستهدف الجنود الفرنسيين فقط إنما امتدت لتشمل المسحيين، والمسلمين ، والأروام ، والشوام ، وهي بذلك تتشابه مع ثورة مصر الأولى على بيبي الثاني . لقد صورها الجبرتي على أنها ثورة رعاع وأنها داست كل القيم والأعراف ، ولم يمنعها من ارتكاب الفواحش والمنكرات دين ، ولا خلق كريم . وإن رددوا في صياحهم " نصر الله ودين الإسلام " .

٤- أن الجبرتي هاجم تلك الثورة ، ووصف أصحابها بالغوغاء الذين لا رئيس لهم يسوسهم وأنهم خرجوا عن الحد ، وأنهم أكثروا من المعايب ولم يفكروا في العواقب، وحتى المتعممين الذين وافقوا هؤلاء الغوغاء قال عنهم أنهم : " لم ينظروا في عواقب الأمور " .

لذا لا تأخذنا الحماسة في الدفاع عن أصحاب هذه الثورة ونهمل الجرائم التي ارتكبوها ونعتبر الرعاع الذين قاموا بها أبطالاً ، وقدوة لأبناء الأمة حتى لا تتكرر مثل تلك المآسي ، ويصبح المجرمون أبطالاً يحتفى بهم ، كما حدث مع الذين اقتحموا السفارة الإسرائيلية واستولوا على كثير من أوراقها ، وحاولوا تشويه صورة الثورة النقية بأفعالهم الإجرامية .

(1) عبد الرحمن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار " مرجع سابق ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

فالثورة الحقيقية لها أصول وضوابط وإلا سوَّينا بين الثوَّار السلميين الشرفاء الذين قاموا بثورة ٢٥ يناير بالبلطجيَّة المسلحين المجرمين الذين روَّعوا الآمنين ، ونهبوا الدور والمحال ، وسرقوا السلاح ، وقتلوا الأبرياء ، واغتصبوا لفتيات والنساء أيام الثورة وبعدها !!

وهذا لا يعني السكوت على الظلم ، والرضا بالهوان ، والسكوت على العدوان ، إنما أقصد أن العدوان لا يكون إلا على الظالمين لا على الأبرياء المسالمين كما قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠]

يقول الإمام الأكبر د. محمد سيد طنطاوي : " إن المقصود من إعداد العدة في الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا في الاعتداء على المسلمين ، وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين في ديارهم ، وحتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحداً سواه – عز وجل – وليس المقصود بأعداد العدة إرهاب المسالمين ، أو العدوان على الآمنين ، أو القهر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله تعالى .

ولذلك وجدنا الآية صريحة في بيان المقصود من هذا الإعداد ، وهو – كما عبَّرت عنه ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهِ يَعْلَمُهُمْ ﴾ .

وهناك آيات أخرى صريحة في بيان سبب مشروعيته القتال في الإسلام ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تعتدوا إِنَّ اللهِ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدين للَّهِ فَإِنِ انتهوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظالمين ﴾ .

والخلاصة : أن من تتبع آيات القرآن الواردة في القتال يجدها جميعها تقرر أن سبب القتال في الاسم ينحصر في رد العدوان ، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقدية ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان ." (١)

(1) الإمام الأكبر الشيخ محمد سيد طنطاوي " التفسير والوسيط " ج١ ص ١٨٥٩ .

ولقد استغل الفرنسيون هذه الثورة وصبُّوا جام غضبهم على المصريين ولم يفرقوا بين مجرم وبريء ، ولا بين قصر وكوخ ولم يراعوا شرائع السماء ولا مبادئ الثورة الفرنسية: الإخاء والعدالة والمساواة .

يقول الجبرتي : " ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص بالجامع الأزهر وجروا عليه المدافع والقنبر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا يا سلام من هذه الآلام يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل .. وبعد هجعة من الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل ومروا في الأزقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند إبليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا إلى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا ما هجعوا وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا إرسالاً ركباناً ورجالاً ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحته ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات .

وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه وأصبح يوم الثلاثاء فأصطف منهم خرب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعاً ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي أفواجا واتخذوا السعي والطواف بها منهاجاً وأحاطوا بها إحاطة السوار ونهبوا بعض الديار

بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون وللنجاة بأنفسهم طالبون وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع . " (١)

لقد أبدت الأفعال التي ارتكبها الفرنسيون بأهل مصر روح الحروب الصليبية المتغلغلة في هؤلاء القوم الذين التي حاول التظاهر بمظهر التحضر والرقي ، وها هم يعيدون سيرة أسلافهم الذين انتهكوا حرمة المسجد الأقصى وحولوه إلى مربض لخيولهم بعدما نهبوه !!

﴿ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران:١١٨]

ثورة القاهرة الثانية

أخمد الفرنسيون ثورة القاهرة الأولى بالقمع والإرهاب الشديد حيث دخلت القوات الفرنسية الجامع الأزهر بخيولهم فأهاج هذا التصرف الشعور الديني لدى المصريين، وامتدت ثورة القاهرة إلى الأقاليم المجاورة .

ويترك نابليون مصر والأخطار تهدد الحملة الفرنسية من كل جانب ، فالجيش في تناقص عدده بسبب المعارك والحروب الداخلية والخارجية ، والدولة العثمانية أرسلت حملة إلى العريش ودمياط ، والمماليك عادوا للمقاومة مرة أخرى ، وتجددت ثورة المصريين في الشرقية ، وامتدت إلى وسط الدلتا وغربها .

وانتهز المصريون في القاهرة فرصة متاعب الفرنسيين على ذلك النحو فقاموا بالثورة الثانية في مارس – أبريل ١٨٠٠م وهاجموا معسكرات الجيش الفرنسي وسرعان ما أخمدت القوات الفرنسية الثورة في القاهرة ، وبعض بلدان الوجه البحري ، أما الوجه القبلي فقد توصل الفرنسيون إلى إخضاعه بالاتفاق مع مراد بك لكي يحكم الصعيد تحت الحكم الفرنسي فقبل مراد بك حتى لا يعود الأتراك مرة أخرى لحكم مصر . (٢)

(1) عبد الرحمن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار " مرجع سابق ج ٢ ص ٢٢٠ ،٢٢١ .
(2) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٨٣ .

obeikandl.com

وفي يوم ١٤ يونيه ١٨٠٠م قُتِل كليبر على يد سليمان الحلبي أحد طلاب الأزهر الشريف ، وتولى " مينو " أمور الحملة .

ويصف لنا الجبرتي كيفية قتل سليمان الحلبي لكليبر فيقول : " وفي ذلك اليوم أعني يوم السبت وقعت نادرة عجيبة وهو أن سارى عسكر كليبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذي بداره بالأزبكية فدخل عليه شخص حلبي وقصده فأشار إليه بالرجوع وقال له ما فيش وكررها فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضائها .

فلما دنا منه مد إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد إليه الآخر يده فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط إلى الأرض صارخاً فصاح رفيقه المهندس فذهب إليه وضربه أيضاً ضربات وهرب .. ولم يزالوا يفتشون على ذلك القاتل حتى وجدوه منزوياً في البستان المجاور لبيت سارى عسكر المعروف بغيط مصباح بجانب حائط منهدم فقبضوا عليه فوجدوه شاميّاً فاحضروه وسألوه عن اسمه وعمره وبلده فوجدوه حلبيّاً واسمه سليمان . " (١)

استغلَّت انجلترا حالة الاضطراب التي عمت الحملة ، وحالة الضعف التي نزلت بهم بعد مقتل كليبر فأرسلت أسطولاً جديداً إلى أبي قير (فبراير ١٨٠١م) وانضم إليه الجيش العثماني ، ولم تستطع القوات الفرنسية المقاومة حيث استسلمت أمام القوات الإنجليزية العثمانية التي دخلت مصر ومعها زعماء المماليك : إبراهيم بك ، والبرديسي ، والألفي ، وأيضاً السيد عمر مكرم ، وغادرت الحملة مصر في ١٨ سبتمبر ١٨٠١ م . (٢)

(1) عبد الرحمن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار " مرجع سابق ج ٢ ص ٣٥٨ .
(2) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٨٣ .

openkan.com

مصر تختار حاكمها

بعد خروج الفرنسيين من مصر حدث تنازع بين ثلاث قوى هي : الدولة العثمانية، والإنجليز ، والمماليك ، وكانت هذه القوى الثلاث قد اتحدت من قبل ضد الفرنسيين ، لكن بعد خروج الفرنسيين أصبحت كل منها تتطلع إلى الانفراد بالحكم.

ولم يكن أي من هذه القوى يحسب حساباً للقوى الوطنية التي تبلوت أثناء الحملة الفرنسية وقامت بدور بارز في مقاومتها ، وقد اتسعت خبراتها بالدخول في تجارب الحكم والسياسة مع الفرنسيين والإطلاع على المعارف الجديدة .

فبعد خروج الحملة الفرنسية وتعرُّض مصر لكثير من الاضطراب والصراعات وتعدد الولاة من قبل السلطان العثماني الذين كان آخرهم خورشيد باشا اندلعت ثورة شعبية، قادها "مجلس الشرع" –المكوَّن من علماء الأزهر– سنة ١٨٠٥م، ضد الوالي التركي" خورشيد باشا"، وخلعته عن حكم البلاد، رغم أنه مولَّى من قِبل السلطان .. ويومئذ أعلن السيد عمر مكرم باسم "مجلس الشرع" أن الأمَّة هي مصدر السلطات، وقال: "إن أولي الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، ولقد جرت العادة من قديم الزمان، أن أهل البلد يعزلون الولاة، حتى الخليفة والسلطان، إذا ساروا فيها بالجور، فإن أهل البلد يعزلونه ويخلعونه."..

ولقد اختار "مجلس الشرع" –باسم أهل البلاد– محمد علي باشا واليًا على مصر، ونزل السلطان العثماني على إرادة أهل البلاد. (١)

واختيار مجلس الشرع محمد علي والياً على مصر حدث له ما بعده فهذه أول مرة في تاريخ مصر الحديث يُعزل فيها الوالي بإرادة الشعب ، ويعين آخر بإرادة الشعب ، وأن يكون اختياره بمعرفة زعماء الشعب .

(1) د. محمد عمارة " ثورات مصر الشعبية " موقع الإسلام اليوم .

كذلك أول مرة توضع شروط للولاية فقد أخذ زعماء الشعب من العلماء على محمد علي العهود والمواثيق التي تمثلت في :

١- أن يسير فيهم بالعدل .

٢- ألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم . (١)

وفي ذلك يقول الجبرتي : " ركب الجميع وذهبوا إلى محمد علي وقالوا : له إنا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولابد من عزله من الولاية .

فقال : ومن تريدونه يكون والياً .

قالوا له : لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير .

فامتنع أولاً ثم رضي ، واحضروا له كركاً وعليه قفطان وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فألبساه له وذلك وقت العصر ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة . (٢)

ولكن الوالي المخلوع رفض أن ينزل عن منصبه حتى يأتيه أمر من السلطان فقاد عمر مكرم المقاومة المسلحة حتى صدر فرمان السلطان بخلعه وتولية محمد علي .

حملة فريزر

بعد خروج الفرنسيين من مصر، كان الإنجليز يحلمون بتولية محمد بك الألفي صنيعهم علي مصر ليضمنوا بذلك سيطرتهم علي مصر التي تمثل طريق التجارة إلي مستعمراتهم في الهند.

أصيبت إنجلترا بالصدمة عندما علمت بتولية زعماء الشعب محمد علي وموافقة السلطان العثماني ، لأنها تعرف أن محمد علي ليس بالشخصية السهلة التي تكون

(1) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٩٣ ، ٩٤ .
(2) عبد الرحمن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار " مرجع سابق ج ٣ ص ٦٢ ، ٦٣ .

obeikandl.com

أداة طيعة في يد إنجلترا. لذلك حاولت إنجلترا إقناع السلطان العثماني بخلع محمد علي وإسناد الولاية لمحمد الألفي أو أي والٍ آخر .

واستجاب السلطان العثماني وأصدر فرماناً بتعيين محمد علي والياً علي سالونيك. فأسرع محمد علي بالاتصال بعمر مكرم واتفقا علي رفض فرمان السلطان والترتيب لمقاومة السلطان والمماليك معاً. وهنا اضطر السلطان العثماني إلي الرجوع عن فرمانه لأنه كان يخشي أن الثورة الشعبية تفقده مصر فيسيطر عليها المماليك والإنجليز معاً .

وعندما وجدت إنجلترا عدم نجاح الأساليب الدبلوماسية مع السلطان العثماني، انتهزت فرصة تدهور علاقتها معه بسبب انحيازه لفرنسا، واتفقت مع روسيا علي ضرب الإمبراطورية العثمانية في مصر. ومن هنا وجهت حملة عسكرية في مارس ١٨٠٧ م لاحتلال مصر وخلع محمد علي وتنصيب محمد بك الألفي وهي الحملة المعروفة بحملة فريزر .

نزلت الحملة إلي الإسكندرية في مارس ١٨٠٧ م، وكان محافظ الإسكندرية حينئذ أمين أغا، وهو من ضباط الأستانة وكان متواطئاً مع الانجليز أن يسلم لهم المدينة على رشوة من المال، وفي مساء ذلك اليوم أخذ جنود الحملة ينزلون إلى البر بشاطئ العجمي، ثم زحف الإنجليز إلى الإسكندرية وعسكروا تحت أسوارها، وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة أبو قير شرق الإسكندرية، وانقضى يومان في مفاوضات صورية بينهم وبين أمين أغا محافظ المدينة انتهت بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه حامية المدينة وعددها نحو ثلاثمائة مقاتل، ودخل الإنجليز الإسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أن تطلق رصاصة واحدة !

معركة رشيد

وبعد أن استولى الإنجليز على الإسكندرية بالخيانة زحفوا على رشيد وقد امتلأت نفوسهم ثقة في سهولة احتلال مصر ؛ فمحمد علي يحارب المماليك في الصعيد ، والمصريون لن يستطيعوا أن يصمدوا طويلاً أمام جيوش إنجلترا الحديثة المدربة .

وكان الجنرال فريزر بالإسكندرية قد تلقي تقريراً من قنصل إنجلترا في رشيد عن حالة مصر وما بها من قوات مما جعله يزحف براً إلى رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة حربية لقواته، وكلف القائد ويكوب بهذه المهمة العسكرية، وكان معه ألف جندي، تحركوا من الإسكندرية إلى رشيد .

لكن الإنجليز خاب ظنهم فقد كانت تنتظرهم مفاجأة غير سارة في رشيد أعدها لهم

محافظها علي بك السلانكي الذي عقد العزم هو وقواته التي تبلغ ٧٠٠ جندي فقط على مقاومة الإنجليز. كما استنفر الشيخ حسن كيريت الأهالي للمقاومة الشعبية، وكانت خطة المقاومة تتلخص في تواري الأهالي بالمنازل داخل مدينة رشيد، وترك الإنجليز يتوغلون داخل المدينة دون مقاومة حتى إذا ما تفرق جنود الإنجليز في شوارع المدينة ودروبها صدر الأمر بالتحرك وإطلاق النار عليهم .

فتقدم الإنجليز ولم يجدوا أي مقاومة، فاعتقدوا أن المدينة ستستسلم كما فعلت حامية الإسكندرية، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين، وأخذوا يستريحون بعد السير في الرمال من الإسكندرية إلى رشيد، وانتشروا في شوارع المدينة والأسواق للعثور على أماكن يلجئون إليها ويستريحون فيها. وما كادوا يستريحون حتى انطلق نداء الآذان بأمر السلانكي من فوق مئذنة سيدي زغلول مردداً : الله أكبر، حي على الجهاد، فانهالت النيران من الأهالي وأفراد حامية رشيد من نوافذ المنازل وأسطحها، فقتل جنود وضباط من الحملة وهرب من بقي حيّاً وبلغ عدد قتلي الإنجليز ١٧٠ قتيلاً و ٢٥٠ جريحاً و ١٢٠ أسيراً . (١)

(1) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة في العصر الحديث " مرجع سابق ص ٢٦٧ ، ٢٦٨

هذه هي مصر الأبية مصر المؤمنة المحبة لوطنها الحريصة على فدائه المستجيبة لنداء ربها " حي على الجهاد " ولم تكن رشيد وحدها هي التي وقفت هذا الموقف البطولي إنما شاركتها شرف الجهاد مدينة حماد والبحيرة والقاهرة .

فبعد هزيمة الإنجليز في رشيد وعجزهم عن احتلالها هاجموا مدينة حمَّاد لعل حظهم يكون أحسن ، ولكنها لقيت هزيمة كبيرة علي يد المتطوعين من رشيد والحماد والبحيرة والقاهرة . مما اضطر الإنجليز إلى التقهقر إلى الإسكندرية للاحتماء بها .

وفي تلك الأثناء عاد محمد علي من الصعيد وزحف إلي الإسكندرية لإخراج الإنجليز وضرب حصار حول المدينة فلم يجد فريزر مفراً من طلب الصلح والجلاء مقابل الإفراج عن الأسري، فوافق محمد علي ودخل الإسكندرية منتصراً .

وكان انتصار محمد علي على الإنجليز سبباً في رضاء الباب العالي علي محمد علي، مما وطد سلطانه في مصر .

وهكذا أحبط أهالي رشيد وحماد والقاهرة المشروع البريطاني لاحتلال مصر .

الثورة في عهد محمد علي

رغم أن شعب مصر هو الذي عين محمد على والياً عليهم ، وأعانوه على التخلص من مقاومة السلطان العثماني ، ودفعوا له ما أراد من المال ليدفع للجند المتمرد أجره وجرايته ، وأخذوا عليه المواثيق ، كما بينا ، وأنهم وقفوا معه موقفاً بطوليّاً في صد حملة فريزر وإجلائها إلا أن محمد على نَكَصَ على عَقِبَيْهِ ونقض ميثاقه مع قادة الشعب وتنكر لفضلهم عليه ، بل راح يتخلص من قادة الشعب واحداً تلو الآخر ثم كبت الحريات وأوقف النقد ، واستبد بحكم مصر .

وحرصاً من محمد علي على استتباب حكم مصر له فإنه لم يشرك المصريين في جيشه خوفاً من ثورتهم عليه ، فعلى الرغم من الانتصارات التي سجلها أبناء الفلاحين بأيديهم ودمائهم إلا أن محمد علي كان يحد من مناصبهم ، وكان يظنها مخاطرة منه

أن يكون من أبناء الفلاحين قوَّاداً أو ضباطاً عظام قد تكون لهم في حكم البلاد آراء.(١)

ومع حرص محمد علي بإبعاد المصريين عن الجيش إلا أنه حدث ضده تمرد قاده الضابط المصري لطيف باشا الذي كانت ولزملائه من الضباط المصريين مطالبهم، فانتهزوا فرصة وجود محمد على في بلاد الحجاز وأحدثوا لوناً من التمرد والاحتجاج الذي عاد محمد علي للقضاء عليه ، وكان مركزه من الحرج بحيث استدعى ابنه طوسون من البلاد الوهابية فعاد مسرعاً لمعاونته تاركاً أمر النصر ضد الجيوش الوهابية تحت رحمة القدر ، وفي هذا دليل على خطورة موقف محمد علي في مصر ، وعلى أهمية هذا التمرد الذي يقوده ضابط مصري له مركزه المعروف في الجيش(٢)

محمد علي ونظرية المستبد العادل

ورغم أن محمد علي يعد رائد النهضة المصرية الحديثة وأنه نقل مصر من غياهب العصور الوسطى التي كان العثمانيون يفرضونها على الشعب المصري إلى نهضة العصر الحديث التي كانت تعيشها أوروبا ، إلا أن هذا لا يمنع أن نذكر أنه كان ديكتاتوراً مستبداً حرم مصر الحريات وسار في المصريين سير الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق .

نقول هذا لأن بعض الناس يقولون لا يُصْلِح أمر مصر إلا دكتاتور عادل ، والحقيقة أن الحاكم إن كان عادلاً فإنه لن يكون ديكتاتوراً ، فالعدل والاستبداد لا يجتمعان في شخصية واحدة ، وإلا جار أحدهما على الآخر .

ولنا أن نقرر مطمئنين منذ البدء أن نابليون بحملته قد أيقظ البلاد المصرية ، كما أيقظ ألمانيا وإيطاليا وغيرهما من دول أوربا .

(1) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ١٣٤ .
(2) نفسه ص ١٣٥ .

openkandil.com

وكان من الطبيعي أن ينهض الشعب المصري ليساير غيره من الشعوب وقد نهضت الأمة المصرية بالفعل فسبقت دول شرق أوربا جميعاً .

وحين هزمت الدولة لم يستطع الشعب المقهور والمُقْصَى عن المشاركة في الحكم أن يقيمها بالسرعة اللازمة ، فمن المهم أن تنهض بالبلاد لكن الأهم أن تنهض بالإنسان سكان هذه البلاد لأن النهضة التي تقوم على رجل تسقط بسقوطه أما النهضة التي تقوم على شعب حر مشارك فلن تسقط بسقوط أي فرد من أفرادها مهما كان مركزه .

تقييم تجربة محمد علي في الحكم

صحيح أن محمد علي بنى جيشاً مقتدراً ، ولكن جيشه وحده لا يكفي ، صحيح أنه أوجد مصر الحديثة ، ولكنه لم يحسن توجيه الحيوية الكامنة في هذا الشعب العريق. لنا أن نقرر محاسن هؤلاء الناس ، ولكن علينا ألا نغفل الأخطاء الكبرى التي هددت كياننا .

ولقد وضع محمد علي زمام الوطن في يده ، كان في يده الجند والعتاد ؛ فبدده في سبيل مطامع خيالية مجنحة ، وجمع في يده أراضي الفلاحين ؛ فلجئوا إلى العصيان المدني فأضربوا عن الزراعة ، وتكاسلوا عن بذل أي مجهود تذهب ثماره لطائفة معينة هم عائلة محمد علي ومن حولهم من العصابات الشركسية والتركية .

ولو أن محمد علي التفت إلى الشعب المصري وقوَّاه ، ووفَّر له القوت والرفاهية واكتفى بالتعمير والتمدن لكان اسمه في الخالدين ، لكنه بدد القوى ، وبعثر الجيش ، وضحَّى بالحرية وبالحياة في غير هدف وفي غير اتزان ؛ فأفقد بلادنا ذخيرة ضخمة من المال وذخيرة ضخمة من الرجال ، وذخيرة ضخمة من النفوس الحرية الأبية ، أذلها أشنع إذلال .

لقد أفسد محمد علي رسالة التمدن لأنه أفقد البلاد كثيراً من الجهد والمال بغير هدف واضح ، وبغير نتيجة سوى هذا الجانب المظهري من تكوينه لدولة ذات مظهر

عسكري برَّاق ، وسوى هذا التاريخ الذي يُروى فيبث الحمية في النفوس المليئة العاطفة والحماس . (١)

لم يكن محمد عليّ محبّاً مصرَ حريصاً على قوتها ونهضتها بقدر ما كان محبّاً نفسَه حريصاً على إقامة إمبراطوريَّة توسعيَّة تحقِّق له وأسرته مجداً خاصّاً ، فنهضة مصر التي سعى لإنشائها ليست بدافع وطني بل بدافع شخصي وليست غاية في ذاتها بل وسيلة لطموح ذاتي وينبغي أن نقيِّم كل أعمال محمد عليّ بهذا المعيار، وقد يقول قائل ومن أدراك بنيَّة الرجل فلعلَّه كان وطنيّاً مخلصاً .

إن الفرق بين الوطني المخلص ، وصاحب الطموح الشخصي أنَّ الوطني المخلص:

أولاً : لا يستبدُّ بالحكم بل يشرك معه كلَّ القوى الوطنيَّة وينتفع بكل صاحب رأي .

ثانياً : إذا تعارض طموحه الخاص مع المصلحة الوطنيَّة العامَّة غلَّب دون تردُّد المصلحة الوطنيَّة .

ثالثاً : أن يعدل في القضية ويحكم بالسَّوِيَّة ويسير مع السَّريَّة . (٢)

ومحمد عليّ استبدَّ بالحكم ، وسخَّر الرعيَّة لتحقيق طموحه الخاص ، ولم يعدل بين الرعيَّة ولم يحكم بالسويَّة ، نعم نهض محمد عليّ بمصر عسكريّاً، وعلميّاً ، واقتصاديّاً في سبيل تحقيق طموحه في تكوين إمبراطوريَّة كبرى ، لكن انهارت هذه النهضة لمَّا فشل محمد عليّ في تكوين إمبراطوريته ؛ لأن هذه النهضة قامت بسطوة فرد وانهارت بضعفه ، ولم تقم على الحبِّ والعدل والشورى والتعاون؛ أن المؤرخين عندما يذكرون إنجازات محمد عليّ العسكريَّة أو العلميَّة أو الاقتصاديَّة فإنهم يبدءونها بقولهم أنشأ محمد علي ... أقام محمد عليّ ... وجَّه محمد عليّ ... أسَّس محمد عليّ ... إلخ

(1) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ١٦٩- ١٧١ بتصرف .
(١) المقصود بـ "يسير مع السريَّة " أن يكون شجاعاً يتقدم صفوف القتال هذا هو الأصل فيها ، لكن الأمر لا يقتصر على الحرب والقتال إنما يمتد ليشمل سائر معايش الناس فالحاكم العادل يجب أن يكون قدوة حسنة للناس وأن يتقي الله في المنشط والمكره ، وفي الرضا والغضب ، والسر والعلانية .

وذلك لأنَّ محمد عليّ قد احتكر كلَّ السلطات كما احتكر الزراعة والصناعة والتجارة.(١)

إرهاصات الثورة العرابية

استمرت نهضة محمد علي واستبداده طوال مدة حكمه فلما مات توقفت النهضة واستمر الاستبداد لقد مهَّد محمد علي لقيام الحكم الخديوي المطلق ، وفي ركابه قام نظام إقطاعي يرتكز على أخلاط غير مصرية من : أتراك ، وشركس ، وأرمن ، وأوربيين ، وبقايا المماليك . واحتكر الجميع مغانم الحكم والمراكز المهمة في الدولة وقامت بينهم روابط من التساند لمواجهة الشعب الذي رزح تحت ظلم أسرة محمد علي دهوراً طويلة ، وما لبث أن زاد من إثقال كاهله عبء أتت هذه المرة من أوربا التي تأثرت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر بالانقلاب الصناعي ، وما جرَّه من رأسمالية واستعمار ، فقد تدفق على البلاد الرأسماليون ورجال الشركات ، كما تدفقت عليها الجاليات الأوربية على اختلاف أجناسها ، وتولدت فيها مصالح ومشروعات أوربية متنوعة ساندتها الحكومات الأوربية ، ولم يفعل الولاة من أسرة محمد علي شيئاً جديّاً لدفع أخطارها ، بل على الضد نجدهم يمهدون لها سبيل التغلغل بضعفهم وترددهم وميلهم السطحي إلى الغرب والحضارة الغربية . وناهيك بقصة حفر قناة السويس والديون وغير ذلك مما دلَّ على أن الأوربيين جميعاً قد عمدوا إلى إقامة مصالحهم في البلاد على أشلاء شعبها وميزانيتها في الوقت الذي تميز فيه أولاد محمد علي بالإسراف والبعد عن الاهتمام بمصالح الشعب الحقيقية . (٢)

وبلغ فساد الحكم المدى في عهد الخديو توفيق ، الذي حرم المصريين التدخل في إدارة شئون بلادهم في المقابل سمح للأجناب بهذا التدخل مما أثار مشاعر الكراهية ضد الأجانب والخديو معاً ومن ثمَّ الاحتجاج على التدخل الأجنبي.

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول حكم محمد على راجع كتابنا " حضارات مصر ونهضاتها، من قبل الأسرات القديمة حتى الثورات الحديثة " دار زهور المعرفة والبركة .

(2) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٢٧٨ .

obeikandl.com

كانت بذور الوطنية المصرية بمعناها الحديث قد ألقيت في عصر محمد علي حين وضعت نواة الجيش الأهلي ، وتشكل التعليم الوطني ، وبدأت نبرز الدواوين والإدارات الجديدة ، وتقوم المالية الإنشائية والوزارات المختلفة ، فالجيش المصري هو الذي أثار في المصريين شيئاً من الأنفة والنظام ، وطبقة الموظفين الوطنيين ، وطائفة الملاك الزراعيين المحليين هما اللتان احتضنتا مصالح أهلية انفردت بأوضاعها الخاصة ، وقامت بذاتها لتساهم في خلق مجتمع جديد يقوم على العنصر المصرية في مواجهة الطبقات الأجنبية الممتازة ، وإدخال التعليم الحديث وإرسال البعثات واستقدام الأوربيين وترجمة الكتب وفك طلاسم اللغة الهيروغليفية ، وكشف معالم تاريخ البلاد القديم ونشر ما كتبه الأوربيون عن مصر والمصريين كل ذلك ساعد على خلق وعي يربط بين المصريين وبلادهم . (١)

ولقد حمل لواء المعارضة صفوة من أعيان المصريين من كبار ملاك الأراضي الزراعية ، ومن المتعلمين ، وانضم إليهم العسكريون ، وكان نفوذ هؤلاء الأعيان قد تعاظم أواخر أيام الخديو إسماعيل من خلال عضويتهم في مجلس شورى النواب الذي سمح به إسماعيل (١٨٦٦م) ، ولقد رحَّب إسماعيل بذلك ليستعين بالأعيان في مواجهة الضغط السياسي الأنجلو – فرنسي وموازنة نفوذ العنصر التركي الشركسي ومن ناحية أخرى لم عد هؤلاء الأعيان طبقة ريفية فقط إذ انتقل عدد كبير منهم إلى المدينة ، وشارك في الحياة العامة ، ودخلوا تدريجيّاً في دائرة العمل السياسي المباشر.

لقد تسببت الأزمة المالية (التي تسبب فيها إسماعيل بإسرافه وبذخه) والواقع السياسي في تذمر أعيان المصريين بشكل عام على نظام الحكم ، وأبدوا اعتراضهم على سياسة رياض باشا رئيس الوزراء الذي كان يعارض في إقامة حياة نيابية ، وينحاز للنفوذ الأوربي ، ويضطهد الوطنيين ، ويعطل الصحف التي تنتقد تصرفات الحكومة ، وأدرك المثقفون أن الإصلاح يأتي بتطبيق الدستور الذي سبق أن وضعه شريف باشا في أواخر حكم إسماعيل (دستور ١٨٧٩ م) وإنشاء مجلس النواب.

(1) نفسه ص ٢٧٩، ٢٨٠ .

كانت مظاهر التذمر على الأوضاع الفاسدة في مصر أوضح ما يكون بين ضباط الجيش المصريين لأسباب تتعلق بسوء معاملة رؤسائهم الأتراك لهم .

وبرز من بين ضباط الجيش ضابط من صميم الشعب المصري وهو أحمد عرابي الذي ما لبث أن مد يده إلى الفئات الوطنية التي سيطر عليها السخط وأخذ يجمع التوقيعات لعريضة شاملة تهدف إلى زيادة عدد الجيش ، وإعادة الحياة النيابية وإسقاط وزارة رياض باشا ، ووجدت العريضة صدى واسعاً لدى طوائف المصريين جميعاً ؛ فإن سخط الجيش كان يلتقي في البلاد والسخط العام الذي غمرها بشتى طبقاتها ، مما ترتب عليه أن اتسعت الهوَّة بين المصريين والأجانب من كل لون .

عرابي يقود الثورة على الخديو توفيق

سرت الشائعات بأن الخديو قد استصدر فتوى من شيخ الإسلام تدين زعماء الضباط بالخيانة العظمى ، وحينئذ اتصل عرابي بالعلماء والأعيان وزعماء البدو الذين خوَّلوه التكلم باسم الأمة ، ووعدوا أن يؤازروه في المظاهرات الوطنية التي أزمع القيام بها في ٩ سبتمبر ١٨٨١ م لتقديم العريضة الوطنية إلى الخديو .

وكانت مظاهرة شعبية رائعة ساند فيها الشعب الجيش وأصبحا يداً واحدة فقد امتلأت القاهرة بوفود الأقاليم التي جاءت لنصرة عرابي ، وفشل الخديو في ضم أي فرقة من فرق الجيش إلى صفه ، بل إن حرسه الخاص انضم لعرابي .

ويقف التاريخ ليرى أحمد عرابي يتقدم على حصانه الأبيض إلى " أفنديا " شاهراً سيفه ووراءه حرس شاكين السلاح .

ويسأله الخديو عن سبب مجيئه ويخبره بأنه جاء ليعرض مطالب الشعب والجيش .

التي تمثلت في :

١- عزل رياض باشا رئيس الوزراء .

٢- تشكيل مجلس النواب .

obeikandl.com

٣- زيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندي .

فقال الخديوي : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.'

إلا أن عرابي قال : لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثا أو عقار فوالله الذي لا إله إلا هو لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم .

وأمام إصرار أحمد عرابي على هذه المطالب اضطر الخديو إلى الاستجابة لمطالب الأمة، وعزل رياض باشا من رئاسة الوزارة، وعهد إلى شريف باشا بتشكيل الوزارة، وكان رجلا كريمًا مشهودًا له بالوطنية والاستقامة، فألف وزارته في (١٩ ١٤ سبتمبر ١٨٨١م)،وكان محمود سامي البارودى وزيراً للحربية بها، وسعى لوضع دستور للبلاد، ونجح في الانتهاء منه وعرضه على مجلس النواب الذي أقر معظم مواده، ثم عصف بهذا الجهد تدخل إنجلترا وفرنسا في شئون البلاد بإرسال المذكرة المشتركة الأولى في ٧ يناير ١٨٨٢ والتي أعلنتا فيها مساندتهم للخديو، وتأزمت الأمور، وتقدم "شريف باشا" باستقالته في (٢ فبراير ١٨٨٢ م) بسبب قبول الخديو تلك المذكرة .

وتشكلت حكومة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي، وشغل عرابي فيها منصب وزير الحربية، وقوبلت وزارة البارودي بالارتياح والقبول من مختلف الدوائر العسكرية والمدنية؛ لأنها كانت تحقيقًا لرغبة الأمة، ومعقد الآمال، وكانت عند حسن الظن، فأعلنت الدستور، وصدر المرسوم الخديوي به في (٧ فبراير ١٨٨٢ م). وسميت هذه الوزارة باسم وزارة الثورة لأنها حققت رضا الشعب والجيش كليهما ، غير أن الأمور في البلاد ازدادت سوءًا بعد حدوث مذبحة الإسكندرية .

مذبحة الإسكندرية

وكان سبب مذبحة الإسكندرية قيام أحد رعايا بريطانيا بقتل أحد المصريين فاستغلت إنجلترا الفرصة، فشب نزاع تطور إلى قتال سقط خلاله العشرات من الطرفين قتلى وجرحى .

وقد أجمع شهود العيان من الأجانب على أن هذه المؤامرة كانت مدبرة ، وأن الغاية منها إثبات أن الحال في مصر قد غدت اخطر من أن يسكت عليها ، وكان هدف بريطانيا من خلق هذه الحال الخطيرة أن تنفرد بالعمل في مصر بدعوى إعادة الأمن في البلاد ؛ فقد أرسلت إلى الدول غداة وصول أسطولها إلى مياه الإسكندرية " إن الحكومة البريطانية لم تفكر قط في أن تنزل إلى البر جنوداً ولا أن تحتل البلاد عسكرياً ، وفي عزم حكومة جلالة الملكة متى أعيدت السكينة إلى مصر وزال الخوف على مستقبلها أن تترك مصر وشانها وتسحب سفنها الحربية "

ولكن بريطانيا لم تسحب سفنها ، ولم تترك مصر وِشأنها ، بل أنذرت السلطات المصرية في العاشر من يوليه بأن الأسطول البريطاني سيبدأ ضرب الإسكندرية إذا لم تسلم قلاعها . (١)

في أعقاب مذبحة الإسكندرية تعهَّد عرابي أمام الخديو وفي حضور الأجانب عن مسئوليته في حفظ النظام في مصر ، لكن عرابي يشكو من التهديد المستمر نتيجة مرابطة الأسطول الإنجليزي أمام سواحل الإسكندرية ، وتسود البلاد اضطرابات عدة ، ويشكل الخديو وزارة ائتلافية جديدة برئاسة راغب باشا يتولى فيها عرابي منصب ناظر الجهادية أيضاً . ويبدو أن الإنجليز قد وجدوا أن الموعد قد حان لتنفيذ مآربهم ، ففي نفس اليوم وهو الحادي عشر من يوليو ١٨٨٢ انسحب الأسطول الفرنسي من ميناء الإسكندرية بناء على تعليمات من حكومته وفي نفس الوقت بدأ الأسطول الإنجليزي في قصف المدينة وشرع في احتلالها . (٢)

يقول عرابي في مذكراته عن احتلال الأسطول الإنجليزي الإسكندرية : " انصبَّت نيران المدافع – الإنجليزية – على القلاع والحصون والترسانة وسراي رأس التين وبالجملة على جميع أرجاء المدينة ولم تجاوبها مدافع القلاع – المصرية – إلا بعد أن أطلق الأسطول – الإنجليزي – نحو ٢٠ طلقة من مدافعه ، ثم استمر القتال بين

(1) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣١٣ .
(2) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٢٢٢ .

obeikandl.com

الأساطيل الإنجليزية وقلاع الإسكندرية بعد ذلك إلى منتصف النهار ثم أخذت الاستحكامات في التناقص والاضمحلال حتى تم تدميرها قبل الغروب . وحيث كانت استحكامات الإسكندرية قديمة كما هو معلوم وجميعها يبنى بالحجارة من مدة ٦٧ سنة أو ٧٠ سنة وقد باغتنا الإنجليز بالعدوان على غير استعداد منا وتأهب فقد كان تأثير شظايا الأحجار المتناثرة وضررها أكثر من تأثير مقذوفات العدو نفسها . ولم يكن بالإسكندرية من حاميات الحصون غير ٧٠٠ رجل فقط من رجال المدافع ... وكانت قذائف المدافع القديمة لا تصل إلى المراكب الإنجليزية ومدافع أرمسترونج – المصرية– لم يكن لها مساطر تعرف بها المسافات وحكم الإصابة بواسطتها " (١)

ورغم سوء استحكامات الإسكندرية وضعف حامياتها وقدم المدافع في مقابل قوة الأسطول الإنجليزي إلا أن أهالي الإسكندرية وقفوا وقفة الأبطال في الدفاع عن مدينتهم .

يقول احمد عرابي في مذكراته : " وفي أثناء القتال تطوَّع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية ، وإعطائهم الماء ، وحمل الجرحى ، وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات . " (٢)

معركة كفر الدوار

احتل الإنجليز الإسكندرية بعد أن أخلاها الجيش المصري وانسحب إلى موقع في كفر الدوار ، وكانت مناعة هذا الموقع راجعة إلى أنه يحيط به من الجانبين أراض لا تصلح لسير الجنود وزحف الجيوش لأنها مستنقعات أو بحيرات ضحلة لذلك أستطاع المصريون أن يصدوا هجمات الإنجليز عليه نحو خمسة أسابيع ، ولم يكتفوا بصد الهجمات عليهم بل إنهم تعقبوا الجيش البريطاني المنهزم حتى أبواب الإسكندرية .

(1) نقلاً عن أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " مرجع سابق ج٢ ص ١٠٩٨
(2) نقلاً عن د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣٢٢ .

obeikandl.com

وهذا يدعونا إلى الحديث عن موقف الشعب : أغنيائه وفقرائه في هذه المرحلة من مراحل الغزو الأجنبي . وقد يكون من الخير أن ندع الشيخ محمد عبده يروي الدور الشعبي العظيم وهو أحد أقطاب الثورة العرابية .

يقول محمد عبده : " هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنيّاً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ؛ فكان يتألب المسلمون والأقباط واليهود لنجدته بحماس غريب وبكل ما أتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز .. ولقد تبرَّع الأحرار والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية حتى النساء بالخيل والحبوب والنقود والميرة (الطعام) اللازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحميَّة في جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعة ولسائر الأشغال العسكرية .

ولقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين إلى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الإنجليز ، وقد شمل هذا الحماس الأقباط ، وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم . وفي أي اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا"(١)

ومن كتابات شهود العيان للثورة العربية يتضح لنا جليّاً أن الشعب المصري أصبح نسيجاً واحداً ، فالمصريون جميعاً على اختلاف ديانتهم (إسلامية ، مسيحية، يهودية) وطبقاتهم (فلاحين ، وعمال ، وعلماء دين ، وأعيان ، وتجار ، وحرفيين) وبيئاتهم (قرى ، ومدن ، وبدو) وثقافتهم (أميون ، وخريجو مدارس مدنية ، ومعاهد دينية ، وكتاتيب) الكل مواطنون ، والكل حريصون على مصلحة الوطن ، والكل يد واحدة على أعداء الوطن الكل على قلب رجل واحد لا تمييز بينهم في الجهاد في سبيل حرية مصر وكرامتها .

(1) نقلاً عن د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣٢٥ .

openkandil.com

هذا شعب مصر الحقيقي الذي يظهر معدنه الأصيل في الكروب والمحن وسوف يتكرر هذه المشهد في كل ثورات مصر الكبرى بعد ذلك في ثورة ١٩ ، وثورة يوليو ٥٢، وثورة ٢٥ يناير .

يقول احمد عرابي في مذكراته : " قامت هذه الحرب الشعواء وليس في خزانة الحكومة درهم لأن المراقب الإنجليزي المستر كلفن أخذ الأموال من خزينة المالية، وأنزلها في السفن الإنجليزية قبل إعلان الحرب بأيام ، وكذلك الأموال التي في صندوق الدين العمومي ، وقد حملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية حيث أمنوا عليها .

وبناء على ذلك تحرر من المجلس العام إلى المديريات لتحصيل الأموال من الأهالي عن كل فدان عشرة قروش ، ومن شاء أن يتبرع بشيء إعانة لإخوانه المجاهدين في سبيل المدافعة عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم يقبل منه مع إعلان الشكر .

ولما أعلن ذلك للعموم جادت الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها بالمال والغلال والخيل والجمال والأبقار والجواميس والأغنام والفاكهة والخضروات حتى حطب الحريق.

ومن الأهالي من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشي ، ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم مقدرته على الدفاع بنفسه .

وبالجملة إن الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والغيرة ما لم يسق إليه عهد من قبل في القرون الخالية . " (١)

وكما عبَّر الشعب المصري عن إيمانه بالقتال وعزمه على مواصلته بالثبات في كفر الدوار وبتموين الجيش وتمويله بالتبرع بالمال والأقوات والتطوع بالأعمال اللازمة في إنشاء التحصينات ، وشق الخنادق – فقد عبَّر عنه نفسه أيضاً بالأشعار والخطب ،

(1) نقلاً عن د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣٢٦ ، ٣٢٧.

وكان في مقدمة شعراء المعركة وخطبائها لسان الثورة الفذ عبد الله النديم صاحب جريدة " الطائف " التي كانت تصاحب الجيش في تنقلاته ، وتسجل الأحداث وتعلق عليها ، وتهيب بالمواطنين لبذل أقصى الجهد في حماية ظهر الجيش والضرب على أيدي خصوم الأمة وأعدائها الداعين إلى التفرقة أو التخاذل المروجين للإشاعات والأراجيف المثبطة للهمم والعزائم .

طعنة الخونة وهزيمة عرابي

لما أخفق الإنجليز في اختراق تحصينات كفر الدوار استداروا إلى قناة السويس وقرروا غزو مصر من هذه الناحية ، وقد فكَّر عرابي في ردم القناة أو تعطيلها مؤقتاً ولو نفَّذ ما فكر فيه لاستحال على الإنجليز احتلال مصر لكنه أعطى ثقته لدليسبس الذي أكد له عدم السماح للأسطول الإنجليزي عبور القناة .

ولم تكن خيانة دليسبس وحدها هي التي سببت هزيمة عرابي في التل الكبير إنما انضاف إليها خيانة الخديو توفيق وسلطان باشا الذين زيَّنا للسلطان العثماني إصدار قرار بعصيان عرابي وخروجه على الخلافة (١) ، وخيانة بعض بدو الصحراء الشرقية الذين أغراهم الإنجليز بالمال فأرشدوهم إلى دروب الصحراء ، وخيانة بعض ضباط الجيش المصري.

يقول نينه السويسري عن الخيانة وأبطالها : " كان بجانب الأمناء في الجيش بالشرقية فريق من الخونة يسوقهم الإنجليز ويمدونهم بالمال ويحرضهم توفيق ويعدهم ، وفريق من الشراكسة الباشوات الذين يحقدون على الفلاحين المصريين ، ومن هؤلاء على يوسف الشهير بخنفس ، وكان مع الأسف الشديد قائد قلب الجيش المصري وهو

(1) جاء في القرار أن " الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعي في مصر هو الخديو توفيق ، وأن أعمال عرابي مخالفة لإرادة الدولة العلية .. وأن عرابي باشا ورفقاءه وأعوانه من العصاة وعلى سكان الأقطار المصرية أن يطيعوا أوامر الخديو وكيل الخليفة على مصر وإلا تعرضوا لمسئولية عظيمة وأن تعامل عرابي باشا مع حضرة السادات الأشراف هي مخالفة للشريعة الإسلامية الغراء ومضادة لها " نقلاً عن د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٢٢٢ .

الذي اشترى سلطان باشا ذمته للإنجليز ، فانسحب بفرقته فأفسح الطريق لجيش الإنجليز . " (١)

فتح خنفس وأمثاله أمام الجيش البريطاني فكانت واقعة التل الكبير واقعة حارب فيها ضد المصريين الجنيه الإنجليز أكثر مما حارب فيها الجندي الإنجليزي .

وهكذا اجتمعت على هزيمة عرابي أنواع من الخيانة ليس أحقر ولا أبشع منها .

وفي ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ خارت قوى عرابي وانهارت مقاومته واضطر إلى الاستسلام حقناً للدماء على وعد بأن دولة الإنجليز لا تريد الاستيلاء على مصر لأنها دولة موصوفة بحب الإنسانية والاعتدال في الأمور .

وقبض على عرابي وتمَّ تقديمه للمحاكمة وحكم عليه بالنفي إلى جزيرة سيلان ، وبدأت مرحلة أخرى من مراحل التاريخ المصري وهو احتلال إنجلترا وسيطرتها على الجيش والبوليس وشيئاً فشيئاً على باقي المرافق المهمة في الدولة . (٢)

ومنذ أن احتلت بريطانيا أرض مصر عام ١٨٨٢ ما فتئت الدعوة إلى الجلاء والجهاد تستعر داخل القوى الوطنية التي حاولت جهدها الخلاص والتحرير من نير الاحتلال الأجنبي ، وكانت أول مفاوضة في سبيل الجلاء عام ١٨٨٥ ، وتظاهرت بريطانيا بالرغبة في تحقيقه وشغلت الرأي العام في مصر والخارج بهذه المفاوضات المسماة درومندولف والتي استمرت سنتين من ١٨٨٥ إلى ١٨٨٧ وانتهت بالإخفاق وبقاء الاحتلال قائماً .

فلما بعثت الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل كان شعارها الجلاء الذي ظل شعار الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل ، واستمر الشعب ماضياً في جهاده في عهد محمد فريد .

---

(1) نقلاً عن د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣٣٣.

(2) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٢٢٣ .

ثورة ١٩١٩ والكفاح من أجل استقلال مصر

أعلن الرئيس الأمريكي " نلسون " مبدأ حق تقرير المصير ، أي حق أي أمة في الحصول على حريتها ، كما أعلن "تأليف عصبة الأمم" للقضاء على تحكيم القوة في أي نزاع لذا سعى الشعب المصري بعد الحرب العالمية الأولى ليس فقط إلى التخلص من الاحتلال البريطاني إنما من الحكم العثماني أيضا وذلك بعرض قرض قضية مصر أمام مؤتمر الصلح الذي كان مقرراً عقده في باريس في ٢٨ يونيو ١٩١٩م من أجل التخلص من إنجلترا ، والدولة العثمانية وتشكل الوفد المصري (سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي) واعترض المندوب السامي على سفر هذا الوفد بحجة عدم تمثيله للشعب المصري فسارعت طوائف الشعب على توقيع توكيلات ، لكن إنجلترا إذ عرفت التفاف الشعب المصري حول الوفد قامت باعتقال سعد زغلول وبعض أفراد الوفد ونفيهم .

لكن الشعب المصري بمختلف فئاته وطوائفه قام بثورة عارمة اشترك فيها المسلمون والأقباط الرجال والنساء الفلاحين والعمال والطلبة والموظفين ، كانت جميع طوائف الشعب ممثلة في هذه الثورة الكبرى .

بدأت الثورة في ٩ مارس ١٩١٩ بالإضراب والمظاهرات احتجاجاً على القبض على زعماء الوفد ، واندلعت الشرارة الأولى من المدارس العليا (الجامعات) والمدارس الثانوية تماماً كما ستكون ثورة ٢٣ يوليو ثورة شباب ، ومظاهرات الطلبة في ١٩٦٨ ثورة شباب ، وثورة ٢٥ يناير بدأت بثورة شباب .

وانضم جميع طوائف الشعب لمظاهرة الشباب ، ورغم أن الإنجليز اعتقلوا منهم ثلاثمائة طالب إلا أنهم لم يستطيعوا تفريق المظاهرات إلا بعد عناء وعندما حلَّ المساء ، واستمرت المظاهرات في اليوم التالي بل اشتدت ، وامتدت إلى الأقاليم ، وساد الاضطراب أنحاء البلاد فدمرت عربات الترام في القاهرة ، واقتلعت الأشجار، وقطعت خطوط البرق ، وأتلفت خطوط السكك الحديدية ، وواجه الإنجليز الأمر

obeikandl.com

بإصدار الأوامر العسكرية إلا أن الأمور استفحلت وتفشت الإضرابات بين مختلف الهيئات والموظفين وعمال الترام والحوذية وسائقي العربات والنقل والأجرة ثم المحامين، وأغلقت المتاجر ، وامتدت الثورة إلى مختلف الأقاليم من الإسكندرية إلى طنطا وشبين الكوم وبركة السبع ورشيد ودمنهور والوجه القبلي كما اشترك فيها طلاب الأزهر وعلماؤه ووقع كثير من الضحايا .

وزاد العنف يوماً بعد يوم ، وشمل البلاد كلها ، وجميع طوائف وهيئات الشعب . وتحت الضغط الشعبي الهائل اضطرت إنجلترا للاعتراف بأن في مصر ثورة فأرسلت لمواجهتها قائداً عسكريّاً مشهوراً بفظاظته وشراسته لمقاومتها وهو الجنرال اللنبي كمندوب سامي .

وما إن وصل اللنبي إلى مصر حتى أبرق إلى حكومته يقترح الإفراج عن سعد وصحبه باعتباره المفتاح لحل الموقف المتأزم في مصر ، فاستجابت الحكومة الإنجليزية على مضض لذلك الاقتراح فأطلقت في السابع من أبريل ١٩١٩ سراح الزعماء المنفيين في مالطة وسمحت لهم بالسفر إلى فرنسا لحضور مؤتمر الصلح ، بل وسمحت لأعضاء آخرين من الوفد بالانضمام إليهم .

ورغم سفر الوفد ومجهوداته في باريس فإن الثورة في مصر لم تهدأ ، واستمرت فيضرب الموظفون والطلاب احتجاجاً على الاحتفال في مصر بعيد جلوس ملك إنجلترا في ٧ مايو ١٩١٩ ، وتفشل وزارات : رشدي باشا ، ومحمد سعيد باشا ، ويوسف وهبة باشا ، وتوفيق نسيم باشا المتتابعة في السيطرة على الموقف . بل ويعلن بعض أمراء الأسرة الحاكمة انضمامهم للأمة ، ويوقعون رسالة إلى اللورد ملنر رئيس لجنة ملنر بضرورة الاستقلال التام ، ويوقعها الأمراء : كمال الدين حسين ، وعمر طوسون ، ومحمد على إبراهيم ، ويوسف كمال ، وإسماعيل داود ، ومنصور داود في ٢ يناير ١٩٢٠ .

وكانت لجنة ملنر قد وصلت إلى مصر لمحاولة التباحث في موضوع الاستقلال ولكنها لقيت مقاطعة كاملة من الأمة المصرية ، فعادت إلى إنجلترا وهي تضمر مفاوضة الوفد المصري فأرسلت تدعوه للحضور من باريس إلى لندن للتفاوض ، ولبَّى الوفد الدعوة ببعض أعضائه برئاسة سعد باشا زغلول ، ولكن تعثر الوصول إلى اتفاق مرضٍ ، وأمام الاحتجاجات في مصر أعلنت إنجلترا أن الحماية على مصر أصبحت علاقة غير مرضية ودعت إلى الدخول في مفاوضات رسمية للوصول إلى علاقة جديدة تربط الدولتين .

وتفشل المفاوضات ويطالب سعد زغلول الأمة باستمرار الجهاد وظل يعقد الاجتماعات ويخطب في الناس لتحميسهم فأنذرته السلطات الإنجليزية بعدم إلقاء الخطب أو عقد الاجتماعات ولما أصرَّ على موقفه اعتقل وصحبه في ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ونفي في سيشل في ٢٩ ديسمبر ثم عدِّل منفاه تقديراً لظروفه الصحية إلى جبل طارق .

واستمرت روح الثورة بعد نفي سعد ، وتم توحيد الصفوف في مواجهة الإنجليز بعدم التعاون معهم ، بل ومقاطعتهم في التعامل في التجارة والبنوك والسفن وشركات التامين . (١)

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

كان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ نتيجة طبيعية لثورة الشعب ووقوفه خلف زعمائه المطالبين بالجلاء والدستور،ذلك التصريح الذي أعلنت فيه إنجلترا انتهاء الحماية البريطانية على مصر وأن تكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة مع بعض التحفظات (٢) وبهذا التصريح أصبحت مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، كما أصبح من حق

(1) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٠ بتصرف .

(2) وهذه التحفظات هي : حق انجلترا في تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر ، و حقها في الدفاع عن مصر ، وحقها في حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات ، وحقها في التصرف في السودان .

obeikandl.com

مصر اتخاذ الدستور نظاماً للحكم فيها مما أدخل مصر ولأول مرة مرحلة جديدة من حياتها السياسية هي مرحلة الديمقراطية التي تعني أن الأمة – لا الملك ولا غيره – مصدر السلطات ، ووضع دستور ١٩٢٣ الذي يجعل الأمة مصدر السلطات لكن الملك فؤاد استطاع أن يفرض بعض المواد في الدستور الجديد تتيح للملك سلطة حل البرلمان المنتخب من الشعب دون قيد أو شرط ، كما جعل من حق الملك إقالة الوزارة، وهذان الشرطان هما ما أفسدا الحياة الديمقراطية في مصر إلى حد كبير .

مباحثات سعد زغلول ومكدونالد والحقوق المقدسة

وجرت مباحثات أخرى حول الجلاء بين سعد زغلول ومكدونالد في أواخر سبتمبر ١٩٢٤م في لندن لكن سير المفاوضات أكد لسعد أنها فاشلة فقد تمسك كل من الطرفين بموقفه وخاصة فيما يختص بالسودان وهو أحد الموضوعات الأربعة المتحفظ عليها في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م وعلى ذلك فلم تمض فترة طويلة على بداية المفاوضات حتى قطعها سعد وعاد إلى القاهرة ليؤكد من جديد عدم التخلي عن أي حق من " الحقوق المقدسة " لمصر في وادي النيل . " [1]

وهذه الحقوق المقدسة هي :

أولا : سحب جميع القوات البريطانية من الأراضي المصرية .

ثانيا : سحب المستشار المالي والقضائي .

ثالثا : زوال كل سيطرة بريطانية على الحكومة المصرية .

رابعا : عدول الحكومة البريطانية عن دعواها حماية الأجانب والأقليات في مصر.

خامسا :عدول الحكومة البريطانية عن دعواها الاشتراك بأي طريقة كانت في حماية قناة السويس . " [2]

([1]) د. على شلبي " الانقلابات الدستورية في مصر ١٩٢٣ – ١٩٣٦ " الهيئة العامة للكتاب ص٢٤ .

([2]) د. عبد العظيم رمضان " تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى ١٩٣٦" مكتبة مدبولي ط٢ص ٤٥١

ويتمكن محمد محمود باشا (رئيس حزب الأحرار الدستوريين) في مباحثاته مع مستر هندرسون وزير خارجية إنجلترا في تحقيق " تقدماً في بعض المسائل الخاصة فيما يتعلق بالنصوص العسكرية التي أقرت انسحاب القوات البريطانية إلى منطقة القناة ، واعتراف بريطانيا للحكومة المصرية بأنها المسئولة منذ ذلك الوقت عن أرواح الأجانب وأموالهم إلى جانب عدة أمور أخرى خاصة بالجيش في السودان . " [1]

معاهدة ١٩٣٦

بعد وفاة الملك فؤاد جرت انتخابات حرة نزيهة في ٢ مايو ١٩٣٦ وأسفرت عن فوز الوفد بالأغلبية البرلمانية .

في تلك الأثناء كانت الأجواء العالمية تنذر بحرب عالمية فقد كانت العسكرية الألمانية قد وصلت إلى قمة قوتها ، وطمح هتلر النازي في اجتياح العالم كله ، وقام الحكم الفاشيستي في إيطاليا بغزو الحبشة ، لذا أحست انجلترا بالخطر من هذين الماردين الجديدين : هتلر ، موسوليني لما لهما من رغبة استعمارية جامحة تساندها قوة عسكرية جبارة " لذا سعت إنجلترا إلى تغيير سياستها تجاه الوفد ، ومشت إليه تمد يد الصداقة ومد الوفد يده إليها لكي يكسب لمصر استقلالها ، بعد أن طالت شقة الجهاد نيفاً وخمسين عاماً وتشكلت هيئة للمفاوضات ضمت جميع رؤساء الأحزاب وذوي الرأي المستقلين وعقدت معاهدة ١٩٣٦ " [2] في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ بوزارة الخارجية البريطانية .

وقد حققت المعاهدة المزايا الآتية :

١- انتهاء احتلال مصر عسكريّاً بواسطة قوات إنجلترا .

٢- انضمام مصر لعصبة الأمم باعتبار مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٣- إلغاء الامتيازات الأجنبية .

([1]) نفسه ص ١٢٢ .

([2]) محمد شوكت التوني " أحزاب وزعماء " مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع ص ٤٢

obeikandl.com

٤- تقوية الجيش المصري إلى الدرجة التي تمكنه من الدفاع عن قناة السويس بمفرده فإذا وصل إلى هذه القوة تجلو القوات البريطانية الحليفة من مصر .

٥- سحب جميع الموظفين البريطانيين من الجيش المصري ، وإلغاء إدارة الأمن الأوربية ، وخروج العنصر الأوربي من البوليس ، واعتبار مصر هي المسئولة عن حماية الأجانب .

٦- حرية مصر في عقد المعاهدات السياسية مع الدول الأجنبية ، بشرط ألا تتعارض مع المعاهدة .

٧- إرجاع الجيش المصري إلى السودان ، واعتراف بريطانيا بالإدارة المشتركة مع مصر والسودان .

٨- أن تسري المعاهدة مدة عشرين سنة .

" على هذا النحو انتهت صفحة من نضال الشعب المصري من أجل الاستقلال الخارجي والداخلي .. وتحولت العلاقة بين بريطانيا ومصر من علاقة احتلال إلى علاقة تحالف . وقد فضلت مصر التحالف مع بريطانيا نظراً لأن خطراً مشتركاً كان قادماً في الطريق وهو الخطر الفاشي المتمثل في ألمانيا وإيطاليا " (١)

مصر وميثاق الأمم المتحدة

ووقعت مصر ميثاق الأمم المتحدة ، وأقر البرلمان المصري الميثاق ، وقد حظيت مصر بتقدير كبير في مؤتمر سان فرنسسكو الذي عُدَّت فيه مصر من الدول المؤسسة لهيئة الأمم المتحدة .

ورأت وزارة النقراشي في ميثاق سان فرنسسكو " ما يعينها على التفكير في التخلص من قيود المعاهدة التي وقعتها مصر في سنة ١٩٣٦ فقد كان الأساس الذي يقوم عليه الميثاق أن الدول التي وقعته متساوية في السيادة ، ولا يجوز أن تفرض دولة

(١) د . عبد العظيم رمضان .

كبرى إدارتها على دولة صغرى أو تمس سيادتها ، وبقاء قوات أجنبية بمصر يمس سيادة مصر فمن حق مصر ، وهذه الحال أن تطلب جلاء هذه القوات عن أراضيها مع استعدادها لعقد اتفاق مع إنجلترا في حدود الميثاق الجديد " [1]

لذا كان شغل وزارة النقراشي الأولى في تلك الأثناء مفاوضة الإنجليز على الجلاء عن مصر ، لكن للأسف بسبب صراع الأحزاب ، وتقديم المصلحة الشخصية على المصلحة العامة حالا دون إتمام المفاوضات .

جلاء الإنجليز عن القاهرة والإسكندرية

وتحت ضغط الكفاح الشعبي المتزايد جلا الإنجليز عن قلعة القاهرة في ٤ يوليه ١٩٤٦ وسلموها إلى الجيش المصري وأنزل العلم البريطاني الذي كان يرفرف عليها طوال أربعة وستين عاماً ثم جلو أيضاً عام ١٩٤٧ عن المواقع التي كانوا يحتلونها في القاهرة والإسكندرية وضواحيها وانتقلوا إلى منطقة قناة السويس وقاعدتها .

إلغاء معاهدة ٣٦ وبدء الكفاح المسلح ضد الإنجليز

ونتيجة ضغط الرأي العام أعلنت حكومة الوفد في أكتوبر ١٩٥١ إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ وكان هذا الإلغاء إذاناً باستئناف الكفاح المسلح بين الفدائيين المصريين والجيش البريطاني وكان كفاحاً مريراً بذل فيه الفدائيون وجموع المواطنين التضحيات الكثيرة .

وقف النحاس باشا على منبر مجلس النواب مساء يوم الاثنين ٨ أكتوبر ١٩٥١ ، وألقى بياناً مستفيضاً عن سياسة الحكومة نحو معاهدة ١٩٣٦ ، أعلن فيها قطع المباحثات السياسية بين الحكومتين المصرية والبريطانية بعد أن تبين بجلاء عدم جدواها كما أعلن إلغاء معاهدة ١٩٣٦ بكلمته التاريخية : " من أجل مصر أبرمت معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها " كما ألغى اتفاقيتي ١٩

(1) د. محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " ج٢ دار المعارف ص ٢٦٥ .

obeikandl.com

يناير و ١٠ يوليه سنة ١٨٩٩بشأن إدارة السودان ، كما قدم مرسوماً بمشروع قانون بتبديل الدستور وجعل لقب الملك " ملك مصر والسودان " (1)

إن الكفاح ضد الإنجليز وما تخلله من بطولة وفداء ، وجهاد وتضحية ، ومقاطعة تامة ،وعدم تعاون مع الاحتلال ، ومنع التموين عن قواته قد أنتج ثمرات طيبة كان لها أثرها في تغيير وجهة النظر البريطانية في فائدة القاعدة الحربية في قناة السويس ، فإن هذه القاعدة لا تكون صالحة للقتال أو إيواء جيش كبير إلا إذا كانت مسنودة من شعب صديق ، وحكومة صديقة ، وأن تكون مواصلاتها ووسائل تموينها سهلة ميسرة مكفولة في حالة السلم ، وخاصة في وقت الحرب . ولقد تبين من كفاح المصريين سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٢ أن هذه القاعدة مهددة بالخطر، وعديمة الجدوى للإنجليز في حالتي السلم والحرب جميعاً .

فالتضحيات التي بذلت والدماء التي سفكت في معارك القتال لم تذهب عبثاً ، بل إن لها فضلاً كبيراً في جنوح الإنجليز إلى قبول الجلاء . بعد أن كانوا مُصرِّين على الرفض ، ولقد اعترف الإنجليز في غمرة الكفاح بهذه الحقائق .

قال اللورد ستانسجيت في هذا الصدد في مجلس اللوردات : " إن القاعدة البريطانية في منطقة القناة أصبحت لا تصلح عسكريّاً ، وإن الكُره الذي يحف بها يجعلها مهددة ، فلا معنى لبقائها " .

وبلغ من شدة توتر أعصاب الجنود البريطانيين أنهم باتوا يتساءلون عن جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فقدت قيمتها نتيجة الشعور الوطني المعادي وعما إذا كان من الأوفق تجنب احتكاكات سياسية جديدة بالبدء في إنشاء قاعدة أخرى في جهة

(1) عبد الرحمن الرافعي " في أعقاب الثورة المصرية " ج٣ الدار القومية للطباعة والنشر ص ٣٣٥

openkanal.com

تعرب حكومتها عن رغبتها في الانضمام إلى قيادة الشرق الأوسط أو على الأقل في منطقة لا يكون وجود القوات الإنجليزية فيها مدعاة للسخط والاستنكار . " (1)

***

(1) نقلاً عن عبد الرحمن الرافعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " ص ١١٨ ، ١١٩

obeikandl.com